القصص العالمية

الأَمِيرَةُ الصَّغِيرَةُ

A LITTLE PRINCESS

FRONT

Arabic edition



فرانسِس بورنِت (١٨٤٩ – ١٩٢٤)

وُلِدَتْ في مانْشِسْتَر في إنْكِلْترا. وهاجَرَتْ في شَبابِها إلى أميركا. واشْتَهَرَتْ كَكاتِبَةٍ لِعَدَدٍ مِنَ القِصَصِ الَّتي لاقَتْ نَجاحًا شَعْبِيًّا كَبيرًا. وقد نَشَرَتْ لها «مكتبة لبنان» في سِلْسِلَةِ «القِصَص العالَمِيَّة» كِتابَها الذّائِعَ الصّيتِ «الحَديقَة السرِّيَّة» الّذي أَصْدَرَتْهُ مُؤَلِّفَتُهُ عامَ ١٩٠٩.

ويَسُرُّنا اليَوْمَ أَنْ نُقَدِّمَ لِلْقارِئِ العَرَبِيِّ العَزيزِ كِتابًا آخَرَ من كُتُبِها الرّائِعَةِ هو كِتابُ «الأَميرَة الصَّغيرَة»، الّذي أَصْدَرَتْهُ المُؤَلِّفَةُ عامَ ١٨٨٨. يَسْرُدُ هٰذا الكِتابُ قِصَّةَ فَتاةٍ شُجاعَةٍ تَتَقَلَّبُ بَيْنَ الغِنى والفَقْرِ فَتُقابِلُ ثَراءَها بِمَحَبَّةٍ وحَنانٍ، وتُواجِهُ فَقْرَها بِشَجاعَةٍ ونُبْلٍ. وفي القِصَّةِ أَحْداثٌ مُشَوِّقَةٌ مُثيرَةٌ يَزيدُها جَمالاً الرُّسومُ الرّائِعَةُ المُلَوَّنَةُ الّتي تُزَيِّنُ صَفَحاتِ الكِتابِ كُلِّه.

سلسلة «القصص العالميّة»

١ – جَزيرَةُ الكَنْز
٢ – أُسْرَةُ روبِنْسُن السّويسرِيَّة
٣ – الحَديقَةُ السِّرِّيَّة
٤ – رِحْلَةٌ إلى باطِنِ الأَرْضِ
٥ – قِصَّةُ مَدينَتَيْن
٦ – العالَمُ المَفْقود
٧ – الفُرْسانُ الثَّلاثَة
٨ – شَبَحُ باسكيرْفيل
٩ – كُنوزُ المَلِكِ سُلَيْمان
١٠ – حَوْلَ العالَمِ في ثَمانينَ يَوْمًا
١١ – أُنْشودَةُ العيد
١٢ – الرّيحُ والصَّفْصاف
١٣ – الأَميرُ السَّعيد
١٤ – جَزيرَةُ الأَحْلام
١٥ – المُحارِبُ الأَخير
١٦ – الأَوْلادُ والقِطار
١٧ – الأَميرَةُ الصَّغيرَة

القِصَص العالَميّة

الأَميرَة الصَّغيرَة



إعْداد: الدّكتور ألبير مُطْلَق
عَنْ قِصَّة: فرانسِس بورْنِت
رسوم: شيرْلي تورِت

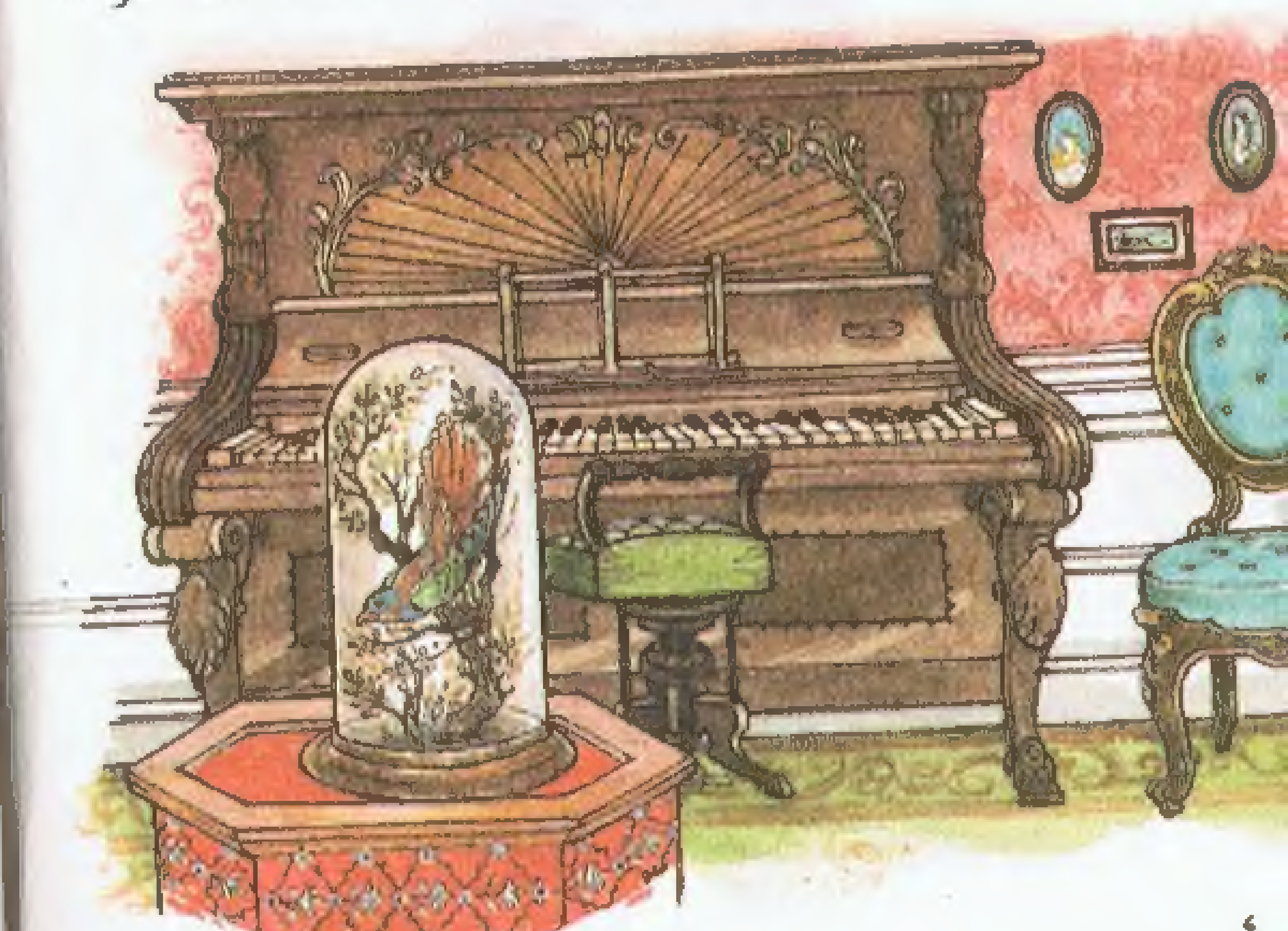
مَكتبة لبنان

سارة

وُلِدَتْ سارة كْرو في الهِنْدِ. وقَدْ تُوُفِّيَتْ والِدَتُها بُعَيْدَ وِلادَتِها ، فعاشَتِ الطِّفْلَةُ مَعَ والِدِها الضّابِطِ الواسِعِ الثَّراءِ ، إلى أَنْ بَلَغَتِ السّابِعَةَ مِنْ عُمْرِها. وكانَ عَلَيْها عِنْدَ ذاكَ أَنْ تَتْرُكَ أَباها لِتَلْتَحِقَ بِمَدْرَسَةٍ في إِنْكِلْترا.

قالَ لَها أَبوها مُحاوِلًا أَنْ يُخَفِّفَ مِنِ اكْتِئابِها : «سَيَكونُ مَعَكِ في المَدْرَسَةِ فَتَياتٌ كَثيراتٌ في مِثْلِ سِنِّكِ. وعِنْدَما تَكْبَرينَ تَعودينَ إِلَيَّ لِتَرْعَيْ شُؤوني!» لكِنَّهُ كانَ يَعْلَمُ ، في قَرارَةِ نَفْسِهِ ، أَنَّهُ سَيُحِسُّ لِغِيابِ ابْنَتِهِ بِوَحْدَةٍ قاسِيَةٍ.

ولَمْ يَكُنْ يُهِمُّ سارة أَنْ يَكونَ عِنْدَها صَديقاتٌ. فلَقَدْ كانَ أَكْثَرَ ما



يَسْتَهويها قِراءَةُ الكُتُبِ ونَسْجُ الحِكاياتِ والتَّحَدُّثُ إلى دُمْيَتِها إِمِلي الَّتي كانَتْ سارة على يَقينٍ مِن أَنَّها تَفْهَمُ كُلَّ كَلِمَةٍ تَقولُها لَها.

كانَ الضّابِطُ كْرو قد جَلَبَ لابْنَتِهِ أَفْخَرَ الثِّيابِ. وكانَ في جُمْلَةِ ما اشْتَرى لَها فَساتينُ مُطَرَّزَةٌ ، ومِعطَفٌ مُزَرْكَشٌ ، وقُبَّعَةٌ مُزَيَّنَةٌ بِريشَةِ نَعامَةٍ.

ولَمْ تَكُنْ تِلْكَ الثِّيابُ الفاخِرَةُ كُلُّها لِتُنْسِيَ سارةَ الحُزْنَ الَّذي كانَتْ تَسْتَشْعِرُهُ لِقُرْبِ افْتِراقِها عن أَبيها المَرِحِ المَحْبوبِ. غَيْرَ أَنَّها ابْنَةُ جُنْدِيٍّ ، وكانَتْ تَعْلَمُ أَنَّ عَلَيْها أَنْ تَكونَ شُجاعَةً. وقالَتْ لِنَفْسِها : «ما أَشْبَهَ الأَمْرَ بِالذَّهابِ إلى مَعْرَكَةٍ!»

وفي يَوْمٍ شَتَوِيٍّ قاتِمٍ انْطَلَقَتْ سارة وأَبوها في عَرَبَةٍ يَجُرُّها حِصانٌ عَبْرَ شَوارِعِ مَدينَةِ لَنْدَنَ الَّتي يُغَلِّفُها الضَّبابُ.





وَصَلَتِ العَرَبَةُ إلى مَنْزِلٍ قِرْمِيدِيٍّ قَبيحٍ ، عُلِّقَتْ على بابِهِ لَوْحَةٌ نُحاسِيَّةٌ تَقولُ :

الآنِسَةُ مِنْتْشِن

مَدْرَسَةُ بَناتِ الأَعْيانِ

أُخِذَ الأَبُ وابْنَتُهُ إلى قاعَةٍ قاتِمَةٍ ، تَنْتَصِبُ في صَدْرِها ساعَةٌ رُخامِيَّةٌ ثَقيلَةٌ ، وتَتَوَزَّعُ في أَرْجائِها قِطَعُ أَثاثٍ مُنَفِّرَةٌ .

هَمَسَتْ سارَةُ قائِلَةً : «لا أُحِبُّ هٰذِهِ المَدْرَسَةَ !» فَشَدَّ أَبوها على يَدِها .

في هٰذا الوَقْتِ دَخَلَتِ الآنِسَةُ مِنْتْشِن القاعَةَ ، فَإذا هي طَويلَةٌ وبَليدَةٌ وقَبيحَةٌ ، مِثْلُها في ذٰلِكَ مَثَلُ مَنْزِلِها الطَّويلِ البَليدِ القَبيحِ . كانَ لَها عَيْنانِ

واسِعَتانِ بارِدَتانِ خَبيثَتانِ ، وابْتِسامَةٌ واسِعَةٌ بارِدَةٌ خَبيثَةٌ .

انْدَفَعَتْ تَقولُ : «يا لَها مِنْ طِفْلَةٍ جَميلَةٍ !» وهي عِبارَتُها الَّتي تَبْدَأُ بِها حَديثَها مَعَ كُلِّ أُسْرَةٍ غَنِيَّةٍ .

وكانَ السَّيِّدُ كْرو قد رَتَّبَ الأَمْرَ مَعَ المَدْرَسَةِ بِحَيْثُ يَكونُ لابْنَتِهِ غُرْفَةُ جُلوسٍ خاصَّةٌ بِها ، وبِحَيْثُ تَحْصُلُ على كُلِّ ما تَطْلُبُهُ من كُتُبٍ . واخْتارَ لَها أَيْضًا خادِمَةً فَرَنْسِيَّةً تُرافِقُها .

قالَ الأَبُ : «إنَّها سَريعَةُ التَّعَلُّمِ ، لٰكِنْ أُريدُها أَنْ تَلْعَبَ أَيْضًا ، وأَنْ تَحْصُلَ على كُلِّ ما يُسْعِدُها !»

بَعْدَ ذٰلِكَ وَدَّعَ الأَبُ ابْنَتَهُ الصَّغيرَةَ بِقَلْبٍ مُثْقَلٍ وغادَرَ المَنْزِلَ.



صَعِدَتْ سارَة في الحالِ إلى غُرْفَتِها وأَقْفَلَتْ وَراءها البابَ. فَبَعْدَ أَنِ افْتَرَقَتْ عن أَبيها أَرادَتْ أَنْ تَخْتَلِيَ بِنَفْسِها.

وَقَفَتِ الآنِسةُ مِنْشِن وأُخْتُها أَميليا خَلْفَ البابِ تُنْصِتانِ، لٰكِنَّهُما لم تَسْمَعا شَيْئًا. فَتَساءلَتا: «لِمَ لا تَبْكي كَما يَفْعَلُ غَيْرُها مِنَ الفَتَياتِ؟» لكِنَّ سارَة لم تَكُنْ كَغَيْرِها مِنَ الفَتَياتِ.



دَرْسُ اللُّغَةِ الفَرَنْسِيَّةِ

في صَباحِ اليَوْمِ التّالي، وَقَفَتْ سارَة أَمامَ طاوِلَةِ الآنِسةِ مِنْشِن، وقد لَبِسَتْ ثَوْبَها المَدْرَسِيَّ الأَزْرَقَ الدّاكِنَ. وراحَتِ الفَتَياتُ يَتَهامَسْنَ. قالَتْ لافينيا، وهي إحْدى الفَتَياتِ الأَكْبَرِ سِنًّا: «لَيْسَتْ جَميلَةً!»

قالَت صَديقَتُها جِسي: «لٰكِنَّ عَيْنَيْها الخَضْراوَيْنِ تَلْفِتانِ النَّظَرَ!»

عادَتْ لافينيا الّتي دَبَّتْ بِها الغَيْرَةُ تَقولُ: «إنَّها تَلْبَسُ ثِيابًا داخِلِيَّةً مُكَشْكَشَةً! ما أَسْخَفَها!»

وَقَفَتْ سارَة هادِئَةً. أَعْطَتْها الآنِسةُ مِنْشِن عَدَدًا مِنَ المُفْرَداتِ الفَرَنْسِيَّةِ لِتَدْرُسَ مَعانِيَها رَيْثَما يَصِلُ مُدَرِّسُ اللُّغَةِ الفَرَنْسِيَّةِ. وكانَتْ سارَة تَعْرِفُ الكَلِماتِ، فقد كانَتْ أُمُّها فَرَنْسِيَّةً، وكَثيرًا ما كانَ أَبوها يُخاطِبُها

بِالفَرَنْسِيَّةِ. وقد حاوَلَتْ أَنْ تُوَضِّحَ ذٰلِكَ لِلآنِسةِ مِنْشِن، لٰكِنَّ الآنِسةَ لم تَكُنْ تُصْغي.

ثُمَّ وَصَلَ مُدَرِّسُ الفَرَنْسِيَّةِ، فقالَتْ له الآنِسةُ مِنْشِن، وقد بَدا عَلَيْها الغَيْظُ: «تِلْميذَتُكَ صَعْبَةُ المِراسِ. إنَّها لا تَرْغَبُ في تَعَلُّمِ اللُّغَةِ الفَرَنْسِيَّةِ، مَعَ أَنَّ أَباها اخْتارَ لَها خادِمَةً فَرَنْسِيَّةً لأَنَّهُ يُريدُها أَنْ تَتَعَلَّمَ هٰذِهِ اللُّغَةَ!»

قالَتْ سارَة: «اِخْتارَ لي أَبي هٰذِهِ الفَتاةَ لِأَنَّهُ رَأى أَنّي سَأَميلُ إِلَيْها!»



إِنْتَفَضَتِ الآنِسَةُ مِنْتشِن قائِلَةً: «لَيْسَ الأَمْرُ هو ما تَميلينَ إِلَيْه وما لا تَميلينَ، أَيَّتُها الفَتاةُ! يَبْدو لي أَنَّكِ ابْنَةٌ أَفْسَدَها الدَّلالُ!»



رَفَعَتْ سارَة عَيْنَيْها الخَضْراوَيْنِ البَريئَتَيْنِ إلى مُدَرِّسِ اللُّغَةِ الفَرَنْسِيَّةِ، ثُمَّ شَرَعَتْ تُحَدِّثُهُ بِأَدَبٍ وبِلُغَةٍ فَرَنْسِيَّةٍ سَليمَةٍ جَرى بها لِسانُها بِطَلاقَةٍ. أَوْضَحَتْ لِلمُدَرِّسِ أَنَّها تَعْرِفُ تِلْكَ الكَلِماتِ الفَرَنْسِيَّةَ الَّتي طُلِبَ إِلَيْها إِعْدادُها. وسُرَّ المُدَرِّسُ بِحَديثِها سُرورًا بالِغًا، وقالَ:

«لا أَسْتَطيعُ أَنْ أُضيفَ إلى عِلْمِها شَيْئًا، فَلَهْجَتُها رائِعَةٌ.»

إِنْتَفَضَتِ الآنِسَةُ مِنْتشِن مَرَّةً أُخْرى وصاحَتْ: «الهُدوءَ! كَفى ضَحِكًا يا بَناتُ! وأَنْتِ يا سارَة كانَ عَلَيْكِ أَنْ تُخْبِريني!»

أَجابَتْ سارَة: «حاوَلْتُ!» غَيْرَ أَنَّ الآنِسَةَ مِنْتشِن كانَتْ قد بَدَأَتْ تَكْرَهُ الفَتاةَ الصَّغيرَةَ.

سارَة تَتَّخِذُ صَديقَةً

وَقَعَتْ عَيْنا سارَة، في أَثْناءِ دَرْسِ اللُّغَةِ الفَرَنْسِيَّةِ، على فَتاةٍ صَغيرَةٍ اسْمُها أَرْمِنْغارْد، كانَتْ تَلوكُ شَريطَ جَديلَتِها. سُئِلَتْ أَنْ تَقْرَأَ فَكانَ لَفْظُها لِلكَلِماتِ رَديئًا جِدًّا. وسَخِرَتْ منها لافينيا وجِسي والأُخْرَيات.

إِحْمَرَّ وَجْهُ أَرْمِنْغارْد وتَحَدَّرَتْ من عَيْنَيْها الدُّموعُ. أَشْفَقَتْ عَلَيْها سارَة، ورَغِبَتْ في مُصادَقَتِها، فَلَقَدْ كانَ من طَبْعِها أَنْ تُسْرِعَ إلى نَجْدَةِ مَنْ هو في مَأْزِقٍ.

وما إِنِ انْتَهى دَرْسُ اللُّغَةِ الفَرَنْسِيَّةِ حتّى أَسْرَعَتْ سارَة إلى أَرْمِنْغارْد ودَعَتْها إلى غُرْفَةِ جُلوسِها لِمُقابَلَةِ دُمْيَتِها إِملي. حَمَلَتْ أَرْمِنْغارْد الدُّمْيَةَ إِملي بِسُرور، بَيْنَما راحَتْ سارَة تَرْوي الحِكاياتِ عَنِ الأَعْمالِ المُدْهِشَةِ الَّتي تَسْتَطيعُ الدُّمى أَنْ تَقومَ بها حينَ تَكونُ الغُرْفَةُ خالِيَةً مِنَ النّاسِ.





سأَلَتْ أرْمِنْغارْد وهي تَشُدُّ الدُّمْيَةَ إلَيْها : «أحَقًّا أنَّ دُمْيَتَكِ تَرْوي لكِ الحِكاياتِ؟»

أجابَتْ سارَة : «أتَخَيَّلُ أنَّها تَفْعَلُ ، فيَبْدو لِيَ الأمْرُ حَقيقيًّا. ألا يَحْدُثُ أنْ تَتَخَيَّلي أشْياءَ؟»

قالَتْ أرْمِنْغارْد : «لَسْتُ في هٰذِهِ النَّباهَةِ. أمّا أنْتِ فإنَّكِ نَبيهَةٌ. ألَسْتِ نَبيهَةً؟»

أجابَتْ سارَة : «لا أدْري.» ثُمَّ ارْتَسَمَتْ على وَجْهِها فَجْأَةً مِسْحَةُ حُزْنٍ ، فلَقَدْ تذَكَّرَتْ أنَّ والِدَها اعْتادَ أنْ يَدْعُوَها بالقِطَّةِ الصَّغيرَةِ النَّبيهَةِ. ثُمَّ سأَلَتْ رَفيقَتَها بلَهْفَةٍ : «أتُحِبّينَ أباكِ أكْثَرَ من أيِّ شَيْءٍ في الدُّنْيا؟»

كانَتْ أرْمِنْغارْد تَخْشى أباها. فلَقَدْ كانَ مُتأَلِّقَ الذَّكاءِ ، وكانَ يَعْجَبُ كَيْفَ أنَّ ابْنَتَهُ لَيْسَتْ إلّا على حَظٍّ قَليلٍ مِنَ النَّباهَةِ. أجابَتِ الفَتاةُ : «لا أراهُ كَثيرًا. إنَّهُ طَوالَ الوَقْتِ في المَكْتَبَةِ يَقْرَأُ.»

قالَتْ سارَة : «أمّا أنا فأُحِبُّ أبي أكْثَرَ من أيِّ شَيْءٍ في الدُّنْيا ، عَشْرَ مَرّاتٍ أكْثَرَ. لٰكِنَّهُ الآنَ بَعيدٌ عَنّي.»

قالَتْ أرْمِنْغارْد بحَياءٍ : «بَيْنَ لافينيا وجِسي صَداقَةٌ حَميمَةٌ. أتَقْبَلينَ أنْ أكونَ صَديقَتَكِ الحَميمَةَ؟ أعْرِفُ أنَّكِ أنْبَهُ الفَتَياتِ وأنّي أغْباهُنَّ - لٰكِنّي أميلُ إلَيْكِ!»

اِبْتَسَمَتْ سارَة وقد تأَلَّقَ وَجْهُها وقالَتْ : «يُسْعِدُني ذٰلِكَ. نَعَمْ ، سنكونُ صَديقَتَيْنِ - وسأُساعِدُكِ في دُروسِ اللُّغَةِ الفَرَنْسِيَّةِ!»



التِّلْميذَةُ المُفَضَّلَةُ

لو لم تكُنْ سارَة رَضِيَّةً مُتَواضِعَةً بطَبْعِها لكانَ مِنَ السَّهْلِ أنْ يُصيبَها التَّكَبُّرُ والغُرورُ. فعلى الرَّغْمِ من أنَّ الآنِسَةَ مِنْتْشِين لم تكُنْ تُحِبُّها فإنَّها كانَتْ لا تكُفُّ عَنِ الثَّناءِ علَيْها. لقد كانَتْ تَخْشى أنْ تكْتُبَ سارَة إلى أبيها لو أساءَتْ مُعامَلَتَها. أمّا لافينيا فقد أكَلَ الحَسَدُ قَلْبَها. فإنَّها كانَتْ بَيْنَ التِّلْميذاتِ ، قَبْلَ مَجيءِ سارَة ، قِبْلَةَ الأنْظارِ.

كانَتْ لاڤينيا قَدِ استَقْوَتْ على رَفيقاتِها الصَّغيراتِ فَبِتْنَ يَخْشَيْنَها. أمّا سارَة فكانَتْ فَتاةً مُحِبَّةً عَطوفًا، رِعايَةُ الآخَرينَ طَبْعٌ فيها. وقد أظْهَرَتْ عَطْفًا شَديدًا على فَتاةٍ صَغيرَةٍ كَثيرَةِ المَتاعِبِ، يَتيمَةِ الأُمِّ، اسْمُها لوتي.



ولم يَكُنْ من طَبْعِ سارَة أنْ تَتباهى. وقد قالَتْ يَوْمًا لِرَفيقَتِها أَرْمِنْغارْد: «ما أكْثَرَ الأشْياءَ الحُلْوَةَ الَّتي نِلْتُها من غَيْرِ أنْ أطْلُبَها! أنا مَحْظوظَةٌ، فقد قَدَّمَ لي أَبي كُلَّ شَيْءٍ. ولا فَضْلَ لي في أنَّ طَبْعِي رَضِيٌّ. ولَعَلّي في داخِلِي مُشاكِسَةٌ شَرِسَةٌ، فأنا لم أتَعَرَّضْ مِنْ قَبْلُ لِتَجارِبَ تَمْتَحِنُني.»

قالَتْ أَرْمِنْغارْد «ولَمْ تُمْتَحَنْ لاڤينيا أيْضًا، غَيْرَ أنَّ تَصَرُّفاتِها كُلَّها بَغيضَةٌ لا تُطاقُ.»

كانَتْ سارَة تَعْرِفُ أنَّ كَلامَ صَديقَتِها صَحيحٌ، لٰكِنَّها لَمْ تَقُلْ شَيْئًا.

قالَتْ لاڤينيا لِجِسي: «وما المَجْدُ في أنْ يَكونَ أبو سارَة ضابِطًا في الهِنْدِ؟ ثمّ إنَّ تِلْكَ الحِكاياتِ الَّتي تَرْويها سارَة عن جِلْدِ النَّمِرِ في غُرْفَتِها والَّذي تَدِبُّ فيه الحَياةُ، حِكاياتٌ سَخيفَةٌ!»

لقد كانَتْ مَوْهِبَةُ سارَة في رِوايَةِ الحِكاياتِ سَبَبًا في تَعَلُّقِ الفَتَياتِ بها. كانَتْ تَجْلِسُ وَسْطَ حَلْقَةٍ من رَفيقاتِها الصَّغيراتِ وتَبْدَأُ في رِوايَةِ حِكاياتٍ مُدْهِشَةٍ، فَتَتَأَلَّقُ عَيْناها الخَضْراوانِ الواسِعَتانِ حَماسَةً. كانَتْ تُلَوِّحُ بِيَدَيْها، وتَرْفَعُ صَوْتَها أو تَخْفِضُهُ بِحَسَبِ ما يَقْتَضيهِ الحالُ، فَتَبْدو حِكاياتُها عَنِ المُلوكِ والمَلِكاتِ والأَقْزامِ والحورِيّاتِ حَقيقِيَّةً نابِضَةً بالحَياةِ.

قالَتْ مَرَّةً: «عِنْدَما أَرْوي حِكاياتي لا تَبْدو لي مُخْتَرَعَةً، بَلْ أُحِسُّ كأنّي أَعيشُ أَحْداثَها، وأنَّ أبْطالَها كُلَّهُمْ هُمْ أنا، بَطَلًا بَعْدَ بَطَلٍ!»

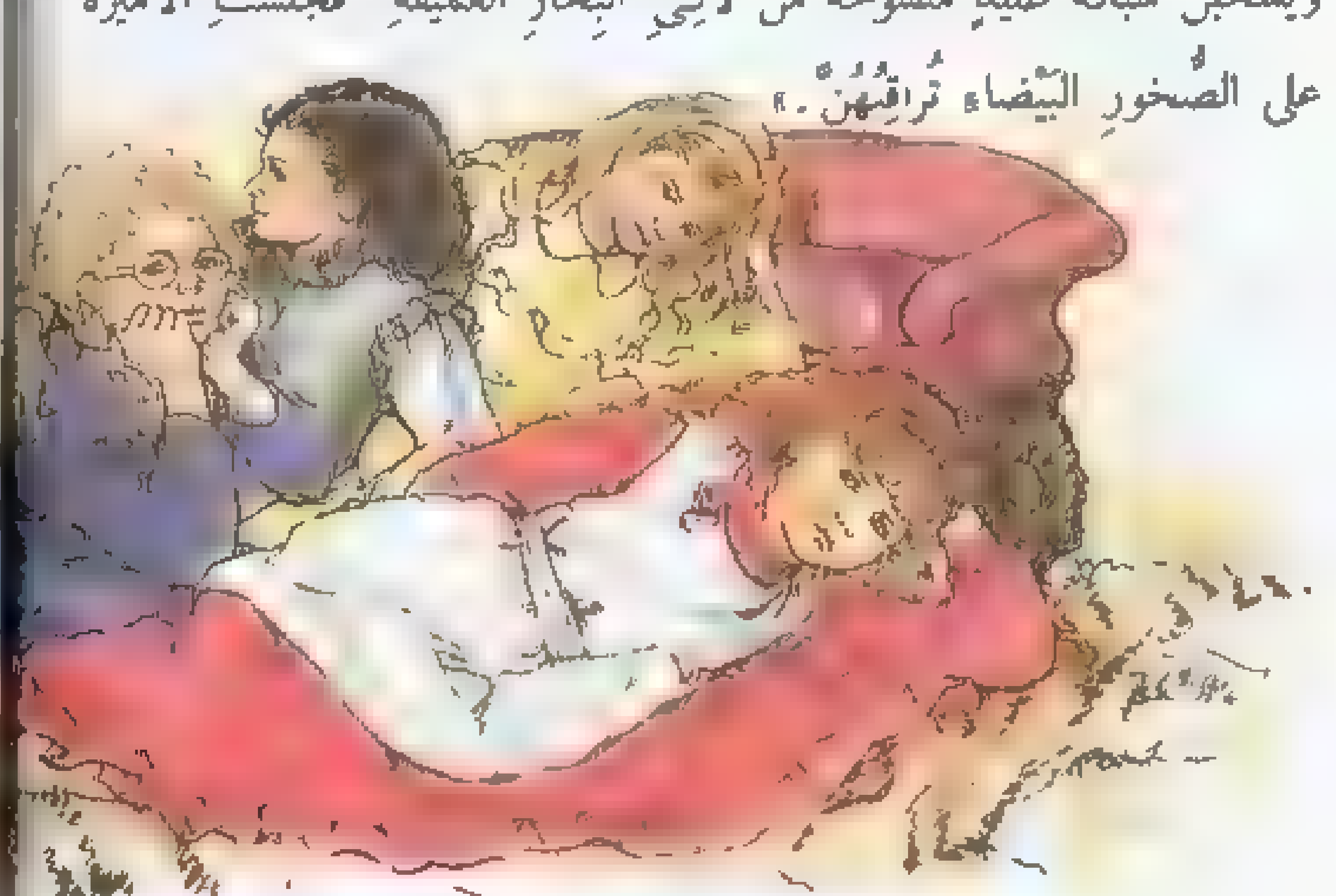


بَكـي

كانَ في المَدْرَسَةِ شَخصٌ يَرى أنَّ حِكاياتِ سارَةَ أجْمَلُ الحِكاياتِ. ذٰلِكَ الشَّخصُ كانَ الخادِمَةَ الصَّغيرَةَ الفَقيرَةَ بكي الّتي لم تكُنْ تُرى إلّا وقد تَلطَّخَ وَجهُها بِالأوْساخِ. فقد كانَتْ تَمْسَحُ الأحْذِيَةَ، وتُنَظِّفُ المَواقِدَ، وتَفرُكُ الأرْضَ، وتَحمِلُ أكْياسَ الفَحْمِ صُعودًا ونُزولًا. وكانَ الجَميعُ يُوَجِّهُ إليها الأوامِرَ مِنَ الصَّباحِ حتّى اللَّيْلِ.

وكانَتْ تَتَباطَأُ ما أمْكَنَها في تَنْظيفِ المَوْقِدِ في غُرْفَةِ جُلوسِ سارَةَ، لِتُتاحَ لها فُرْصَةُ سَماعِ الحِكاياتِ. كانَتْ سارَةُ تَرْوي يَوْمًا إحْدى حِكاياتِها وتَقولُ:

«كانَتْ عَرائِسُ البَحْرِ يَسْبَحْنَ بِرِفْقٍ في المِياهِ الصّافِيَةِ الزَّرْقاءِ، ويَسْحَبْنَ شَبَكَةَ صَيْدٍ مَنْسوجَةً من لآلِئِ البِحارِ العَميقَةِ. فجَلَسَتِ الأميرَةُ على الصُّخورِ البَيْضاءِ تُراقِبُهُنَّ.»



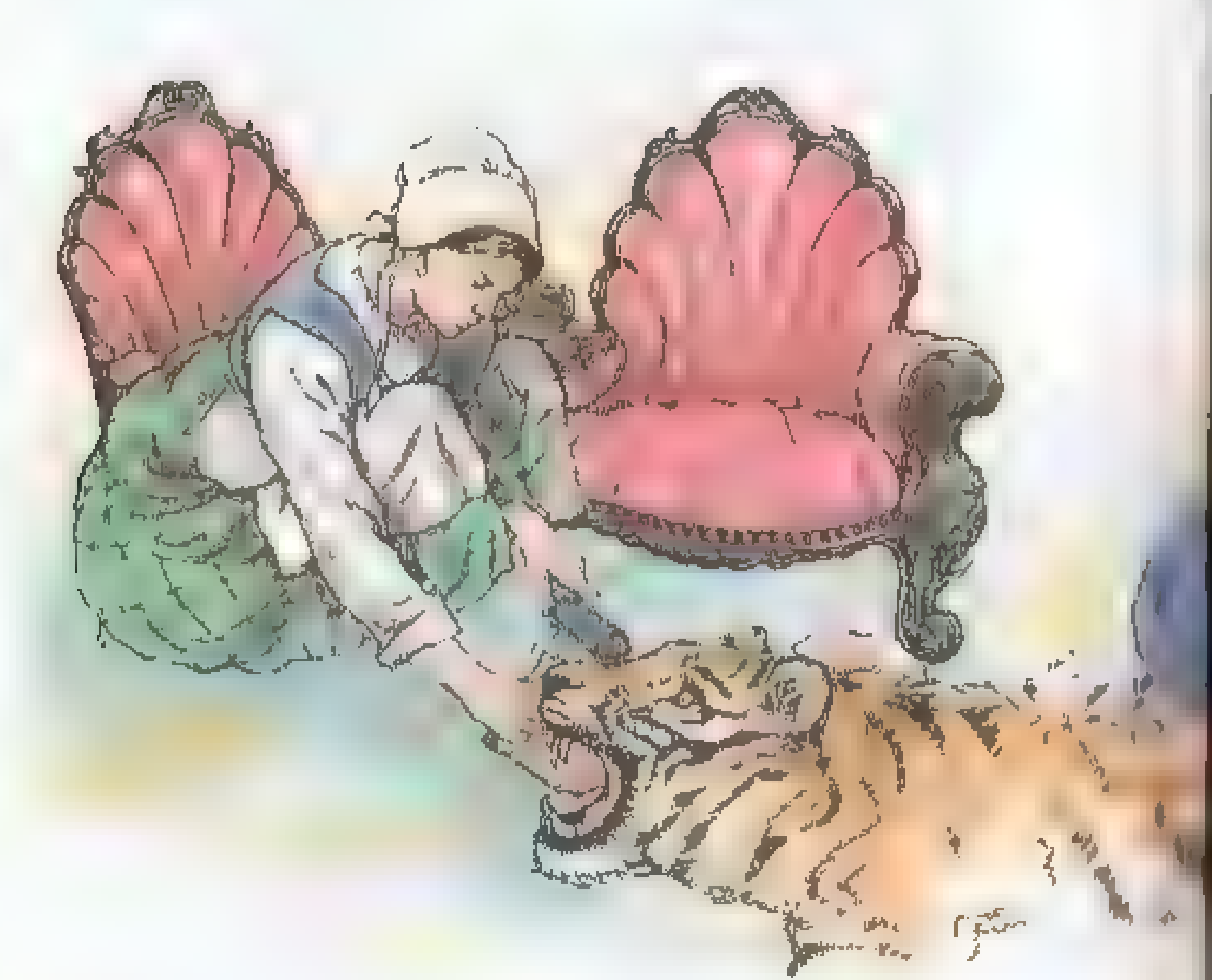
إرْتَدَّتْ بكي إلى الوَراءِ مَبْهورَةً، وأسْقَطَتِ الفِرْشاةَ. فلَقَدْ شَدَّها صَوْتُ الرّاوِيَةِ مَعَهُ إلى كُهوفٍ في أعْماقِ البِحارِ، مَرْصوفَةٍ بِالرِّمالِ الذَّهَبِيَّةِ، ومُلَوَّنَةٍ بِضَوْءٍ أزْرَقَ هادِئٍ، ونابِضَةٍ بِأحْلى الأغاني.

قالَتْ لافينيا بِحِدَّةٍ: «هٰذِهِ الفَتاةُ كانَتْ تُنْصِتُ إلَيْنا!»

سَألَتْ سارَةُ: «ولِمَ لا تُنْصِتُ؟»

قالَتْ لافينيا ساخِرَةً: «لَيْسَتْ إلّا خادِمَةً!»

دَأَبَتْ سارَةُ بَعْدَ ذٰلِكَ على التَّحَدُّثِ إلى بكي. وكانَتْ تُعْطيها قِطَعَ الحَلْوى وتُجْلِسُها قُرْبَ النّارِ، وتَرْوي لها الجانِبَ الّذي يَكونُ قد فاتَها سَماعُهُ مِنَ الحِكاياتِ.

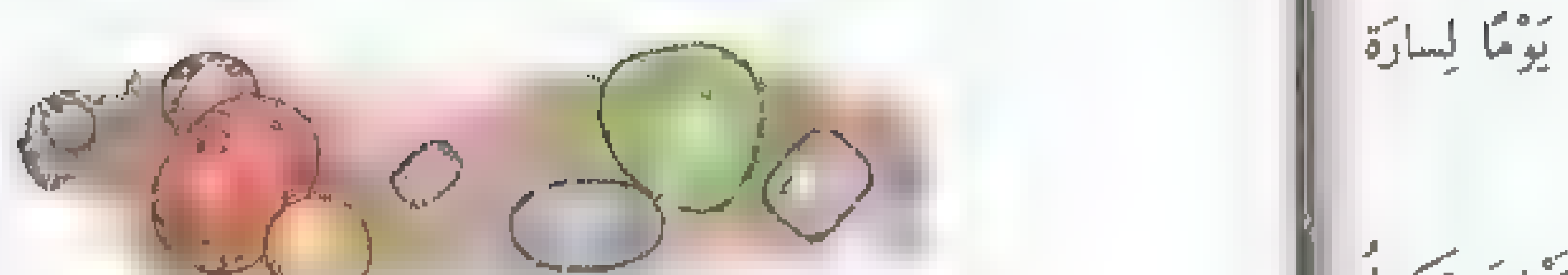


أحبَّتْ بكي كثيرًا حكايةَ عرائسِ البحرِ والأميرةِ. وقالَتْ يومًا لِسارة بِصَوْتٍ خجولٍ: «أظنُّكِ أشبهَ ما تكونينَ بالأميرةِ!»

قالَتْ سارة بِشَيْءٍ مِنَ التأمُّلِ: «كثيرًا ما تساءلْتُ كيفَ تكونُ الأميراتُ. لَعَلّي أتخيَّلُ أنّي واحدةٌ!»

كثيرًا ما كانَتْ بكي تشعُرُ بالجوعِ، فكانَتْ سارة تشتري لها الفطائرَ، وتُعطيها إيّاها خِلْسةً. فتُسرعُ بكي إلى السَّقيفةِ الخشبيَّةِ في قِمَّةِ المنزلِ حيثُ تعيشُ، وقد أسعدَتْها الفطائرُ وأسعدَها أكثرَ مِنْ ذلكَ عطفُ سارة علَيْها.





مناجمُ الماسِ

أرسَلَ الضابطُ يومًا إلى ابنتِهِ أخبارًا مُدهِشةً. فلقدِ اشتركَ معَ صديقٍ له في شراءِ مناجمَ لاستخراجِ الماسِ. بَدا ذلكَ لِسارة وكأنَّهُ حكايةٌ من حكاياتِ الجنّيّاتِ. وراحَتْ تروي لِرفيقاتِها حكاياتِ الأنفاقِ الأرضيّةِ الغامضةِ الّتي تتألّقُ ببريقِ الجواهرِ.

قالَتْ لافينيا: «لا أصدِّقُها! لَيسَ هذا إلّا ضربًا من تخيُّلاتِها!»

وقالَتْ جسي: «لعلَّكِ سمعْتِ بجديدِها. إنّها تتخيَّلُ نفسَها أميرةً! هذا ما أخبرَتْني به لوتي. تصوَّري ذلكَ!»

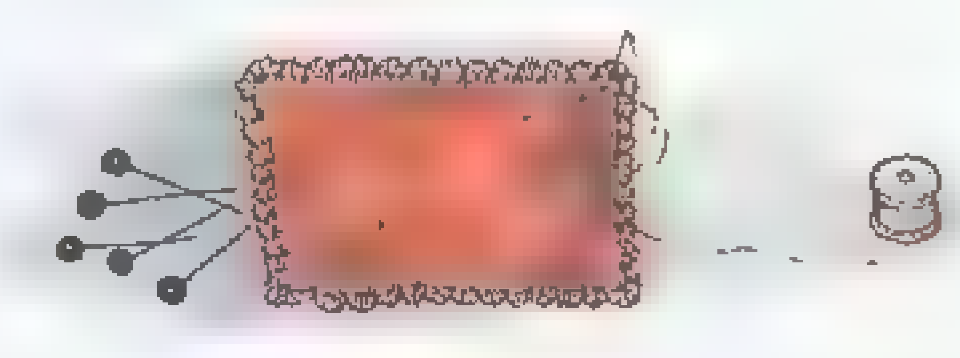
في هذهِ اللحظةِ دخلَتْ سارة الغرفةَ، فأزعجَها اكتشافُهُنَّ لِسِرِّها الغالي، فقالَتْ بوقارٍ وجلالٍ: «هذا صحيحٌ. إنّي أتخيَّلُ نفسي أميرةً لأتصرَّفَ تصرُّفَ الأميراتِ!»

مَرَّتِ الأَيّامُ، وحَلَّ عيدُ ميلادِ سارَة الحادِيَ عَشَرَ. أَرْسَلَ لها أَبوها دُمْيَةً رائِعَةً، فكَتَبَتْ له سارَة تَقولُ: «هٰذِهِ دُمْيَتِي الأَخيرَةُ. فأَنا كَبِرْتُ.»

لم يَكْتُبْ أَبوها عن مَناجِمِ الماسِ بِحَماسَةِ هٰذِهِ المَرَّةَ، قالَ: «الأَعْمالُ تُرْهِقُني.»

تَلَقَّتْ سارَة هَدِيَّةً أُخرى كانَتْ مَوْضِعَ اعْتِزازِها. فَلَقَدْ قَدَّمَتْ لها الخادِمَةُ بَكي غِطاءَ وِسادَةٍ أَحْمَرَ اللَّوْنِ، صَنَعَتْهُ بِنَفْسِها من قُماشٍ رَخيصٍ، وطَرَّزَتْهُ تَطْريزًا غَيْرَ مُنْتَظِمٍ. قالَتْ بَكي:

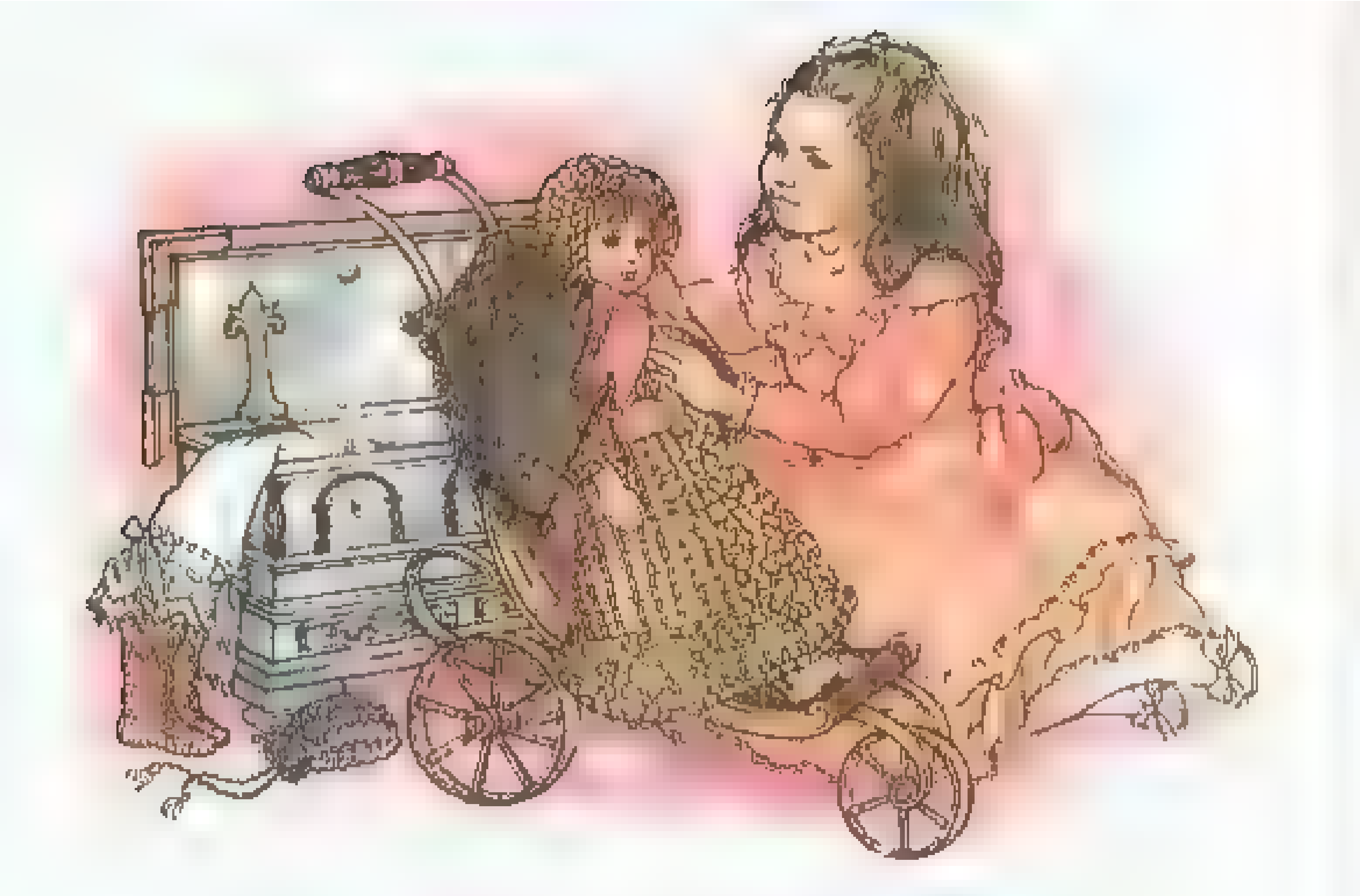
«أَعْرِفُ أَنَّكِ قادِرَةٌ على أَنْ تَتَخَيَّلي أَنَّ الغِطاءَ من حَريرٍ وأَنَّهُ مُطَرَّزٌ بالجَواهِرِ. فَلَقَدْ تَخَيَّلْتُ أَنا ذٰلِكَ حينَ كُنْتُ أَقومُ بِصُنْعِهِ!»



عيدُ ميلادِ سارَة

تَقَرَّرَ أَنْ تُقامَ حَفْلَةٌ لِفَتَياتِ المَدْرَسَةِ كُلِّهِنَّ. وطَلَبَتْ سارَة أَنْ تَحْضُرَ بَكي الحَفْلَةَ. وقد وافَقَتِ الآنِسَةُ مِنْشِن على مَضَضٍ. وقالَتْ لِبَكي آمِرَةً:

«قِفي في الزّاوِيَةِ، ولا تَقْتَرِبي مِنَ الفَتَياتِ.» وقَنِعَتْ بَكي بِذٰلِكَ ما دامَتْ قادِرَةً على رُؤْيَةِ الهَدايا.



قالَتِ الآنِسَةُ مِنْشِن تُخاطِبُ الفَتَياتِ: «سَتُصْبِحُ سارَة ذاتَ يَوْمٍ عَظيمَةَ الثَّراءِ. ولِهٰذا وَضَعَها أَبوها في رِعايَتي لِتَتَزَوَّدَ بالعِلْمِ الصَّحيحِ. لقد تَكَرَّمَتْ ودَعَتْكُنَّ جَميعًا إلى حَفْلَتِها، فاشْكُرْنَها. أَتْرُكُكُنَّ الآنَ لِحَفْلَتِكُنَّ.» ثُمَّ انْسَحَبَتْ مِنَ الغُرْفَةِ بِخُيَلاءَ وعَظَمَةٍ.

أَسْرَعَتِ الفَتَياتُ كُلُّهُنَّ لِيَرَيْنَ الهَدايا، وبِخاصَّةٍ الدُّمْيَةُ الأَخيرَةُ. كانَتِ الدُّمْيَةُ رائِعَةً. وقد وَصَلَتْ في صُنْدوقٍ خاصٍّ بِها مَليءٍ بِثِيابٍ فاخِرَةٍ ومُجَوْهَراتٍ.»

شَهَقَتْ فَتاةٌ تَقولُ: «تَكادُ تَكونُ في حَجْمِ لوتي!»

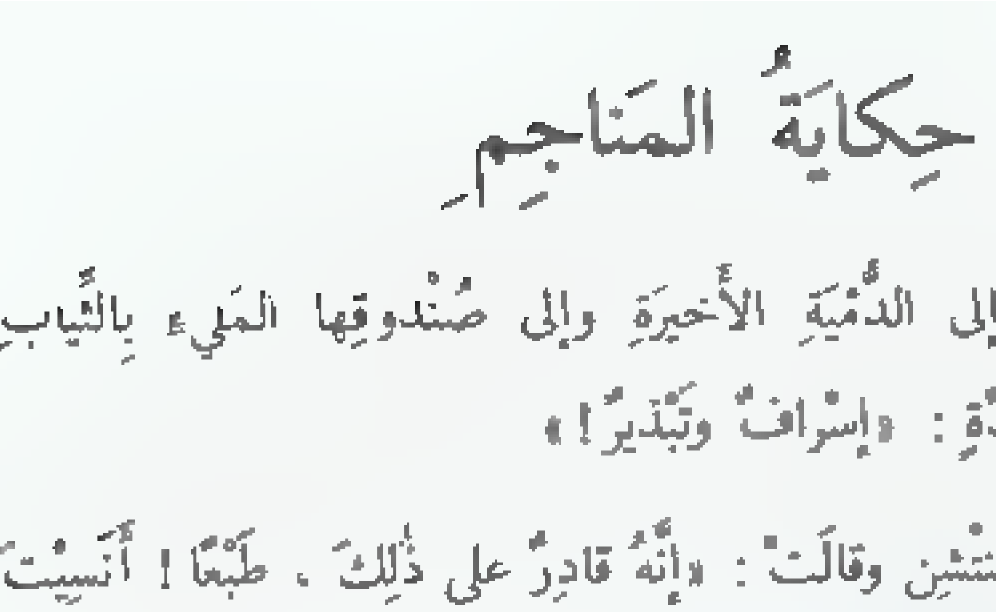
قالَتْ سارَة: «أَتَظُنِّينَ أَنَّها تَفْهَمُ ما نَقولُ؟»

قالَتْ لافينيا : «أَنْتِ دائِمًا تَفْتَرِضينَ وتَظُنّينَ. عِنْدَما يَمْلِكُ المَرْءُ كُلَّ ما يَشْتَهي فكُلُّ شَيْءٍ حَسَنٌ. لِمَ لا تَتَخَيَّلينَ مَثَلًا أَنَّكِ فَقيرَةٌ تَعيشينَ في سَقيفَةٍ خَشَبِيَّةٍ؟»

بَدا على سارَةَ التَّأَمُّلُ ثمّ قالَتْ : «أَظُنُّ أَنّي قادِرَةٌ على ذٰلِكَ. لو كُنْتُ فَقيرَةً لَكانَ عَلَيَّ أَنْ أَتَخَيَّلَ طَوالَ الوَقْتِ. لٰكِنْ لا أَظُنُّ ذٰلِكَ سَهْلًا!»

في تِلْكَ اللَّحْظَةِ دَخَلَتِ الآنِسَةُ أَميليا الغُرْفَةَ وقالَتْ : «عَلَيْكُنَّ جَميعًا أَنْ تَنْتَقِلْنَ إلى غُرْفَةٍ أُخرى لِتَناوُلِ الحَلْوى ، فالسَّيِّدُ بارو ، مُحامي والِدِ سارَةَ ، هُنا وسَتَسْتَقْبِلُهُ الآنِسَةُ مِنْشِن في هٰذِهِ الغُرْفَةِ.»

خَرَجَتِ الفَتَياتُ مُسْرِعاتٍ ، ودَخَلَتِ الآنِسَةُ مِنْشِن المَكانَ يَتْبَعُها رَجُلٌ طَويلٌ يَلْبَسُ مِعْطَفًا قاتِمًا.



حِكايَةُ المَناجِمِ

نَظَرَ السَّيِّدُ بارو إلى الدُّمْيَةِ الأَخيرَةِ وإلى صُنْدوقِها المَليءِ بِالثِّيابِ والجَواهِرِ ، وقالَ بِحِدَّةٍ : «إِسْرافٌ وتَبْذيرٌ!»

اِبْتَسَمَتِ الآنِسَةُ مِنْشِن وقالَتْ : «إِنَّهُ قادِرٌ على ذٰلِكَ ، طَبْعًا! أَنَسيتَ مَناجِمَ الماسِ؟»

قالَ السَّيِّدُ بارو بِحِدَّةٍ : «لا شَيْءَ من ذٰلِكَ! وما كانَ عِنْدَهُ مَناجِمُ ماسٍ قَطُّ. لقد خَدَعَهُ صاحِبُهُ وفَرَّ. إنَّ المَرْحومَ الضّابِطَ كْرو...»



«المَرْحومَ؟ ماذا تَقْصِدُ؟»

«ماتَ ، يا سَيِّدَتي . قَتَلَتْهُ حُمّى الأَدْغالِ وهُمومُ الأَعْمالِ . ماتَ يُرَدِّدُ اسْمَ ابْنَتِهِ ، ولم يَتْرُكْ وَراءَهُ قِرْشًا واحِدًا !»

شَهَقَتِ الآنِسَةُ مِنْشِن وقالَتْ : «أَتَعْني أَنَّ سارَةَ فَقيرَةٌ مُعْدَمَةٌ ؟ وأَنَّ أَمْرَها تُرِكَ بَيْنَ يَدَيَّ ؟»

قالَ السَّيِّدُ بارو بِعُبوسٍ : «لَيْسَ لها أَحَدٌ في الدُّنْيا ، ولا مَعَها قِرْشٌ واحِدٌ .»

اِنْتَفَضَتِ الآنِسَةُ مِنْشِن قائِلَةً : «لَقَدْ دَفَعْتُ ثَمَنَ الهَدايا ومَصْروفاتِ الحَفْلَةِ ! سَأَرْمي بها في الشّارِعِ !»



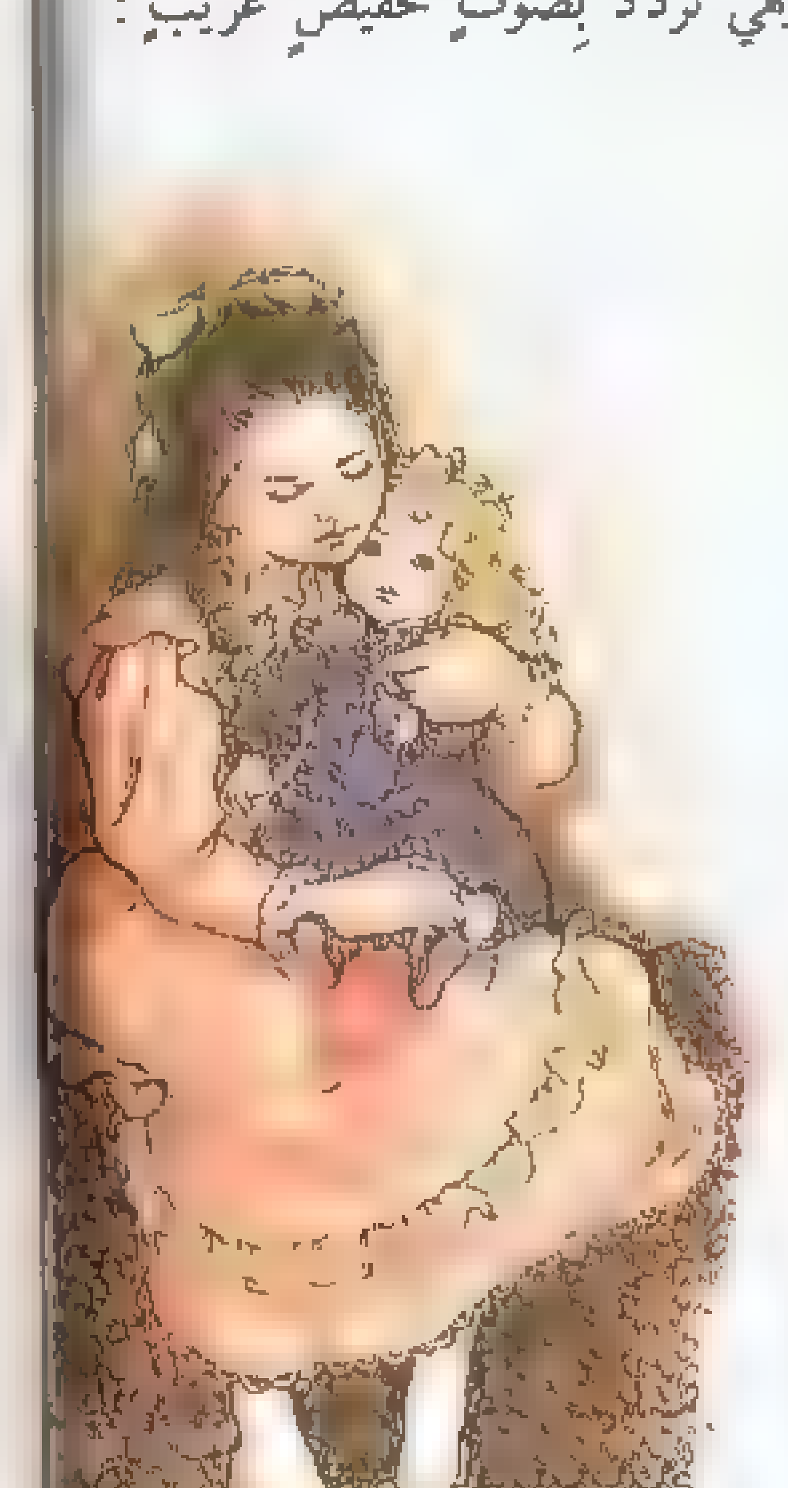
قالَ السَّيِّدُ بارو : «لا أَنْصَحُ بِذٰلِكَ ، يا سَيِّدَتي . فَكِّري بِسُمْعَةِ المَدْرَسَةِ الطَّيِّبَةِ ! لَعَلَّ مِنَ الخَيْرِ أَنْ تَحْتَفِظي بها وتُفيدي مِنها . إِنَّها فَتاةٌ نَبيهَةٌ .» ثُمَّ انْحَنى مُوَدِّعًا وخَرَجَ وأَغْلَقَ البابَ وَراءَهُ .

نادَتِ الآنِسَةُ مِنْشِن ، وهي في هِياجٍ ، أُخْتَها الآنِسَةَ أَميليا ، وزَعَقَتْ : «الضّابِطُ كْرو ماتَ ماتَ مُعْدَمًا ، وتَرَكَ لِيَ ابْنَتَهُ المُدَلَّلَةَ . أَوْقِفي هٰذِهِ الحَفْلَةَ السَّخيفَةَ ! مُري سارَةَ أَنْ تَخْلَعَ ثَوْبَها في الحالِ وأَنْ تَلْبَسَ ثَوْبًا أَسْوَدَ .»

قالَتِ الآنِسَةُ أَميليا بِرَجاءٍ ، وكانَتْ أَرَقَّ قَلْبًا من أُخْتِها . «أَعَلَيَّ أَنْ أَقولَ لها ذٰلِكَ ؟ الآنَ ؟ في أَوْجِ الحَفْلَةِ ؟» لٰكِنَّها لم تَجْرُؤْ على مُعارَضَةِ أُخْتِها فَمَشَتْ إلى الغُرْفَةِ بِبُطْءٍ ، وهي تَمْسَحُ دُموعَها .

عالَمٌ غيرُ ذاكَ العالَمِ

عِنْدَما أُخْبِرَتْ سارَةُ أَنَّ أَباها قد ماتَ لم يَصْدُرْ عنها صَوْتٌ. وَقَفَتْ تَنْظُرُ إلى الآنِسَةِ أميليا الَّتي نَقَلَتْ إلَيْها النَّبَأَ بِعَيْنَيْنِ واسِعَتَيْنِ خَضْراوَيْنِ جامِدَتَيْنِ ووَجْهٍ شاحِبٍ. ثُمَّ صَعِدَتْ إلى غُرْفَتِها وأَقْفَلَتْ وَراءَها البابَ. وراحَتْ تَذْرَعُ الغُرْفَةَ ذَهابًا وإيابًا، وهي تُرَدِّدُ بِصَوْتٍ خَفيضٍ غَريبٍ: «أَبي ماتَ! أَبي ماتَ!»



قالَتْ لِدُمْيَتِها إملي: «أَبي ماتَ. ماتَ في الهِنْدِ على بُعْدِ آلافِ الأَمْيالِ.»

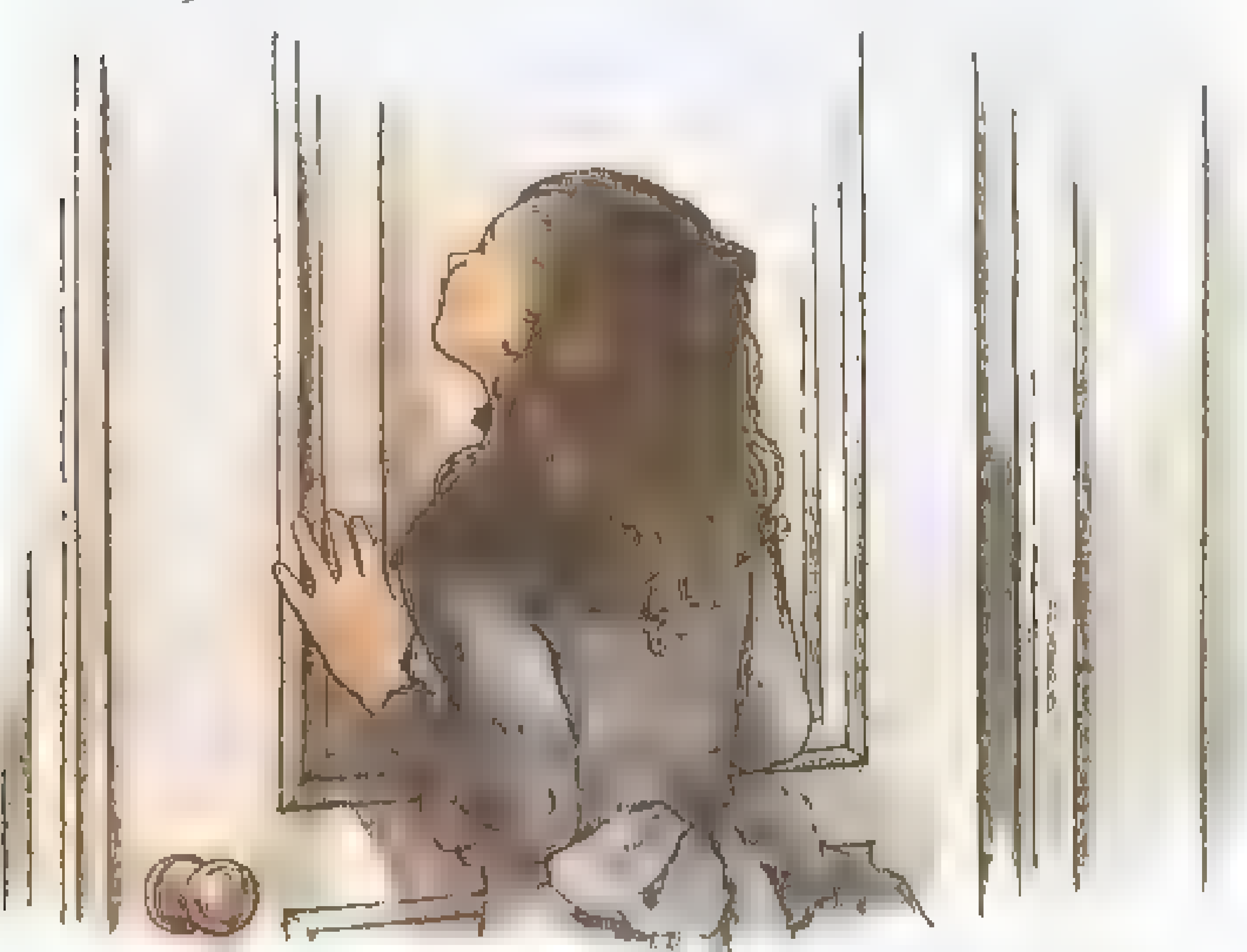
لَبِسَتْ ثَوْبًا أَسْوَدَ كانَ قَصيرًا جِدًّا عَلَيْها، ورَبَطَتْ شَعْرَها بِشَريطٍ أَسْوَدَ. ثُمَّ ذَهَبَتْ إلى غُرْفَةِ الآنِسَةِ مِنْشِن وهي تَحْمِلُ إملي.

قالَتِ الآنِسَةُ مِنْشِن بِبُرودٍ: «ما عادَ عِنْدَكِ وَقْتٌ لِلدُّمى. أَنْتِ الآنَ فَقيرَةٌ مُعْدَمَةٌ مِثْلُ بَكي. وعَلَيْكِ أَنْ تَعْمَلي لِتَكْسِبي عَيْشَكِ.»

قالَتْ سارَةُ بِلَهْفَةٍ: «أَتُعْطينَني عَمَلًا؟ ذٰلِكَ يُخَفِّفُ مِمّا أنا فيهِ.»

«نَعَمْ. يُمْكِنُكِ أَنْ تَعْمَلي. سَتُساعِدينَ الفَتَياتِ الصَّغيراتِ، وتَقومينَ بِبَعْضِ الأَعْمالِ المَطْبَخِيَّةِ. الآنَ انْصَرِفي!»

عادَتْ سارَةُ إلى غُرْفَتِها، فَوَجَدَتِ الآنِسَةَ أميليا في انْتِظارِها عِنْدَ



البابِ. قالَتِ الآنِسَةُ أميليا، وقد بَدا عَلَيْها الإشْفاقُ: «لم تَعُدْ هٰذِهِ غُرْفَتَكِ!»

«وأَيْنَ غُرْفَتي الآنَ؟»
«في السَّقيفَةِ، مَعَ بَكي.»

صَعِدَتْ سارَةُ الدَّرَجاتِ البالِيَةَ الَّتي تُوصِلُ إلى السَّقيفَةِ في أَعْلى المَنْزِلِ. فَتَحَتِ البابَ وتَطَلَّعَتْ. إنَّهُ عالَمٌ غَيْرُ ذاكَ العالَمِ الَّذي عَرَفَتْهُ.



كانَ لِلغُرْفَةِ سَقْفٌ مائِلٌ. وكانَتِ الجُدْرانُ المُبَيَّضَةُ بِالكِلْسِ قد تَقَشَّرَتْ. وكانَ المَوْقِدُ صَدِئًا والفِراشُ قاسِيًا. وتَوَزَّعَتْ في الغُرْفَةِ بِضْعُ قِطَعٍ مِنَ الأَثاثِ القَديمِ، وفُرِشَ في وَسَطِها بِساطٌ بالٍ. وكانَ في السَّقْفِيَّةِ كُوَّةٌ وَسِخَةٌ لا يَرى المَرْءُ من خِلالِها إلا سُقوفًا مائِلَةً ومَداخِنَ المَواقِدِ.

جَلَسَتْ سارَةُ على مَقْعَدٍ خَشَبِيٍّ ووَضَعَتْ دُمْيَتَها إمِلي بَيْنَ ذِراعَيْها ورَمَتْ وَجْهَها على شَعْرِ الدُّمْيَةِ. ولم يَصْدُرْ عنها صَوْتٌ.

بَعْدَ هُنَيْهَةٍ، سُمِعَ نَقْرٌ على البابِ، وامْتَدَّ وَجْهٌ أَبْيَضُ صَغيرٌ حَزينٌ. كانَتْ تِلْكَ بَكي.

أَجْهَشَتْ سارَةُ بِالبُكاءِ وهي تَقولُ. «آهِ، يا بَكي! قُلْتُ لَكِ إنَّنا مُتَشابِهَتانِ فَتاتانِ صَغيرَتانِ. أَرَأَيْتِ الآنَ أَنَّ ما قُلْتُهُ لَكِ صَحيحٌ. لَسْتُ أَميرَةً كَما كُنْتِ تَحْسَبينَ!»



حرَتْ نكي نحوَها وضمَّتْها إلى صدرِها ، وأجْهشَتْ هي أيْضًا بالبُكاءِ ، وقالَتْ : «بلْ أنْتِ أميرةٌ ، يا آنِسَتي ! ومهْما حدثَ مِنْ أمْرٍ فستظَلّينَ أميرةً ! ولَنْ يُغيِّرَ ذلِكَ شيْءٌ ! »

حياةٌ جديدةٌ

لم تنْسَ سارةَ قطُّ ليْلتَها الأولى في السَّقيفَةِ ، وقد لفَّها الظّلامُ رَقدَتْ في فِراشِها البارِدِ القاسي تُنصِتُ إلى عَويلِ الرِّياحِ وإلى أصْواتِ الجُرْذانِ تنْبُشُ الجُدْرانَ.

وأُخبِرَتْ في اليوْمِ التالي أنَّ عليْها أنْ تتناوَلَ طعامَها في المطْبَخِ ، وأنْ تُعلِّمَ الفتَياتِ الصَّغيراتِ الفرَنْسيَّةَ ، وأنَّهُ غيْرُ مسْموحٍ لها بعْدَ الآنَ أنْ تُخاطِبَ الفتَياتِ الأُخرَياتِ ، أوْ أنْ تشْترِكَ في الدَّرْسِ معَهُنَّ ، وأنَّها تتلقّى أوامِرَها مِنَ الطَّبّاخَةِ والخادِماتِ في المنْزِلِ.

كانَتْ «أميرةً» فصارَتْ خادِمَةً بالِيَةَ الثِّيابِ . وبدَتْ وقد ترَكَتْ ثِيابَها السّابِقَةَ فجْأةً فتاةً غريبَةَ الهيْئَةِ . كانَتْ تعْمَلُ بِجدٍّ لِتُرِيَ أنَّها تكْسِبُ عيْشَها بِالعمَلِ. ترْكُضُ تحْتَ المطَرِ والثَّلْجِ لِتأْتِيَ بِما يُطلَبُ منها ، وتقومُ بالأعْمالِ المنْزِليَّةِ الصَّعْبَةِ بِلا تأفُّفٍ. وكثيرًا ما كانَتْ تحِسُّ بِالجوعِ ، ولا تسْمَعُ كلِمَةَ عطْفٍ من إنْسانٍ. ولم يكُنْ لها مِنْ صديقٍ غيْرُ الخادِمَةِ بكي

بلَغَتْ سارةَ مِنَ التَّعاسَةِ حدًّا جعلَها تشُكُّ في دُمْيَتِها إملي وفي قُدرَتِها على فهْمِ شيْءٍ. وذاتَ يوْمٍ صاحَتْ بها قائِلَةً : «لسْتِ إلّا دُمْيَةً ! » ورمَتْها أرْضًا.

كانَتْ أَرْمِنْغارْد غائِبَةً عَنِ المَدْرَسَةِ حينَ وَقَعَتْ هٰذِهِ الأَحْداثُ. وعِنْدَما عادَتْ لم تَفْهَمْ سَبَبَ التَّغَيُّرِ الشَّديدِ في هَيْئَةِ رَفيقَتِها سارَة، ولا كَيْفَ تَمُرُّ بها سارَة في المَمَرّاتِ فلا تُكَلِّمُها. وذاتَ لَيْلَةٍ صَعِدَتْ إلى السَّقيفَةِ.

قالَتْ باكِيَةً: «يا سارَة، اشْتَقْتُ إِلَيْكِ كَثيرًا! ظَنَنْتُ أَنَّكِ نَسيتِني! كَيْفَ تَحْتَمِلينَ العَيْشَ في هٰذِهِ السَّقيفَةِ المُخيفَةِ؟»

أَجابَتْ سارَة، وقد أَخَذَتْ مُخَيِّلَتُها تَنْشَطُ، بَعْدَ تَوَقُّفٍ لازَمَها مُنْذُ بِدايَةِ مَتاعِبِها: «أَحْتَمِلُها، إذا تَخَيَّلْتُ أَنّي أَعيشُ في غَيْرِ هٰذا المكانِ. سأَتَخَيَّلُ أَنّي سَجينَةٌ في سِجْنِ الباستيلِ! وأَنّي أُقيمُ في ذٰلِكَ السِّجْنِ مُنْذُ سِنينَ، وأَنَّ النّاسَ كُلَّهُمْ قد نَسوني. الآنِسَةُ مِنْشِن هِيَ السَّجّانَةُ، وبِكي هي رَفيقَةُ الزِّنْزانَةِ! سأَتَّخِذُ من أَحَدِ الجُرْذانِ صَديقًا وأُطْعِمُهُ فُتاتَ الخُبْزِ!»

الْتَفَتَتْ فإذا عَيْناها تُشِعّانِ، كَما كانَتا تُشِعّانِ مِنْ قَبْلُ، وقالَتْ: «سأَعودُ إلى التَّخَيُّلِ، فإِنَّ فيهِ عَزاءً بالِغًا!»





الأُسْرَةُ الكَبيرَةُ

أَرَتْ سارَة رَفيقَتَها أَرْمِنْغارْد المَشْهَدَ الّذي تَكْشِفُهُ كُوَّةُ السَّقْفِ. كانَتْ سَقْفِيَّةُ المَنْزِلِ المُجاوِرِ خالِيَةً. قالَتْ سارَة بِحَسْرَةٍ: «لَيْتَ أَحَدًا يَشْغَلُ هٰذا المَكانَ!»

كانَ يَعيشُ في مَنْزِلٍ قَريبٍ أُسْرَةٌ كَبيرَةٌ، تَتَأَلَّفُ من أَبٍ مَرِحٍ وأُمٍّ بَشوشٍ وعِدَّةِ أَوْلادٍ. وفي أَحَدِ الأَيّامِ، رَأى وَلَدٌ مِنَ الأَوْلادِ سارَة تَقِفُ على الرَّصيفِ، فَبَدَتْ بِثَوْبِها البالي ووِقْفَتِها الحَزينَةِ، جائِعَةً. بَحَثَ في جَيْبِهِ فَوَجَدَ قُروشًا أَخْرَجَها وقَدَّمَها لِسارَة قائِلًا «اِشْتَري بِها طَعامًا!»

صُدِمَتْ سارَة إِذْ أَدْرَكَتْ أَنّها تُشْبِهُ الأَطْفالَ المُتَسَوِّلينَ الّذين كانَتْ تَراهُمْ على الرَّصيفِ في أَيّامِ هَناءَتِها.

أَسْرَعَتِ الأُمُّ البَشوشُ تَقولُ: «يا بُنَيَّ، كَيْفَ تَعْرِضُ مالًا على الفَتاةِ؟ أَنا واثِقَةٌ أَنّها لَيْسَتْ مُتَسَوِّلَةً! هَلْ أَغْضَبَها ما فَعَلْتَ؟»

«لا، قالَتْ إِنَّهُ لَتَصَرُّفٌ نَبيلٌ!»

قالَتِ الأُمُّ بِشَيْءٍ مِنَ التَّأَمُّلِ: «هٰذِهِ العِبارَةُ لا تَصْدُرُ عن مُتَسَوِّلٍ.»

أَصْبَحَتِ الأُسْرَةُ الكَبيرَةُ بَعْدَ ذٰلِكَ تُبْدي اهْتِمامًا بِسارَة، وتُراقِبُها وهي في طَريقِها لِقَضاءِ حاجاتِ المَدْرَسَةِ، ودَعَتْها بِاللّامُتَسَوِّلَةِ الصَّغيرَةِ.



وَجَدَتْ سارة مَرَّةً في الشّارِعِ المُوحِلِ قِطْعَةَ نَقْدٍ فِضِّيَّةً. حَمَلَتِ القِطْعَةَ النَّقْدِيَّةَ إلى مَخْبَزٍ مُجاوِرٍ، وتَرَكَتْها عِنْدَ صاحِبَةِ المَخْبَزِ لِتُعْطِيَها لِمَنْ يَسْأَلُ عنه. وأَثْنَتْ صاحِبَةُ المَخْبَزِ على سارة وقَدَّمَتْ لها بِضْعَ فَطائِرَ. كانَتْ سارة جائِعَةً، لكِنَّها رَأَتْ أَمامَ المَخْبَزِ فَتاةً فَقيرَةً بائِسَةً فَأَعْطَتْها الفَطائِرَ، واحْتَفَظَتْ لِنَفْسِها بِواحِدَةٍ فَقَطْ. وقالَتْ لِنَفْسِها: «هكذا تَتَصَرَّفُ الأَميراتُ.»

السَّيِّدُ الهِنْدِيُّ

في أَحَدِ الأَيّامِ وَقَفَتْ أَمامَ المَنْزِلِ الخالي المُجاوِرِ عَرَبَةٌ تَحْمِلُ أَثاثًا. وراحَتْ سارة تُراقِبُ الرِّجالَ وهم يَنْقُلونَ السَّجّادَ الشَّرْقِيَّ، وقِطَعَ الأَثاثِ المَنْقوشَةَ بِأَشْكالٍ بَديعَةٍ، والمُطَرَّزاتِ الرّائِعَةَ. وأَدْرَكَتْ مِمّا رَأَتْ أَنَّ صاحِبَ المَنْزِلِ كانَ، أَغْلَبَ الظَّنِّ، يَعيشُ في الهِنْدِ.

رَأَتْ سارة رَبَّ الأُسْرَةِ الكَبيرَةِ، السَّيِّدَ كارْمايكِل، يَتَوَلّى إِعْطاءَ التَّوْجيهاتِ إلى العُمّالِ. فَعَجِبَتْ لِذلِكَ. وبَيْنَما هي تُراقِبُ دَخَلَتْ عَلَيْها بَكي، وقالَتْ بِحَماسَةٍ:

«إِنَّهُ هِنْدِيٌّ! وهو واسِعُ الثَّراءِ، لكِنَّهُ عَليلٌ، ورَبُّ الأُسْرَةِ الكَبيرَةِ مُحاميه!»



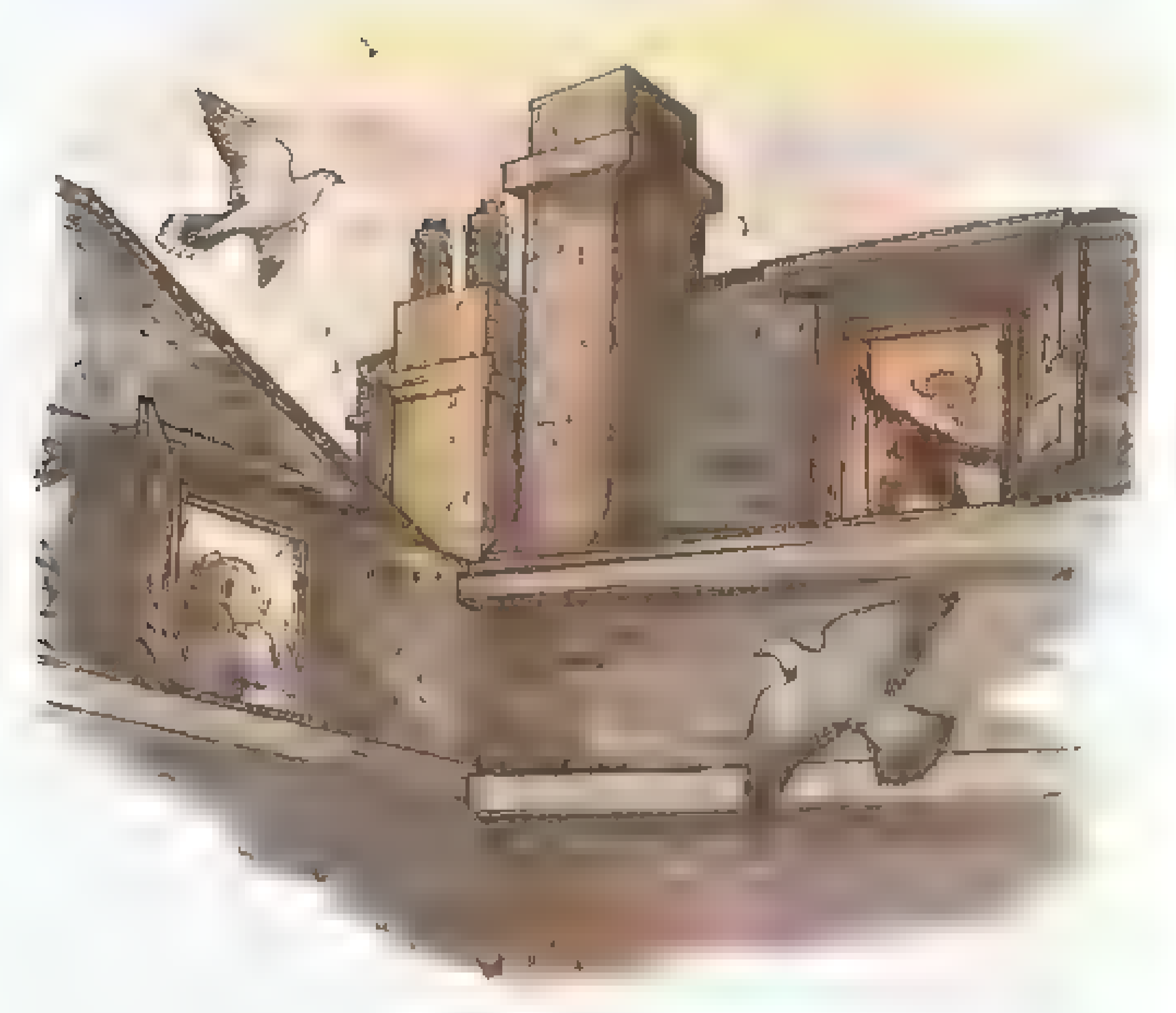


في اليَوْمِ التّالي وَصَلَ الهِنْدِيُّ صاحِبُ البَيْتِ تُرافِقُهُ مُمَرِّضَةٌ وخادِمانِ هِنْدِيّانِ. لم يَكُنِ الرَّجُلُ هِنْدِيًّا فِعْلاً ، بَلْ كانَ إنْكليزيًّا عاشَ في الهِنْدِ زَمَنًا طَويلاً ، ويُدْعى السَّيِّدَ كارِسْفورْد. وقد تَنَقَّلَتْ أَخْبارَهُ الخادِماتُ في مَدْرَسَةِ الآنِسَةِ مِنْتْشِن. قُلْنَ :

«خَسِرَ أَمْوالَهُ كُلَّها ، وتَسَبَّبَتْ له الصَّدْمَةُ بِحُمّى الدِّماغِ لكِنَّهُ الآنَ اسْتَعادَ كُلَّ ما خَسِرَ من مالٍ – شيْءٌ ذو صِلَةٍ بالمَناجِمِ.»

قالَتْ سارَة بِحُزْنٍ: «يُشْبِهُ ما وَقَعَ لأَبي.»

كانَتْ سارَة في إحْدى الأُمْسِيّاتِ تُراقِبُ من سَقْفِيَّتِها لَوْنَ السَّماءِ الوَرْدِيَّ الذَّهَبِيَّ ، فسَمِعَتْ في السَّقْفِيَّةِ المُقابِلَةِ صَخَبًا وصَوْتًا حادًّا. اِلْتَفَتَتْ إلى مَصْدَرِ الصَّخَبِ فرَأَتْ وَجْهًا أَسْمَرَ يُطِلُّ عَلَيْها بِعَيْنَيْنِ مُشِعَّتَيْنِ ، ويَعْلوهُ غِطاءُ رَأْسٍ ناصِعُ البَياضِ. لقد كانَ فَتًى هِنْدِيًّا يَقِفُ عِنْدَ شُبّاكِ السَّقْفِيَّةِ ويَحْمِلُ بَيْنَ يَدَيْهِ سَعْدانًا صَغيرًا مُصَوِّتًا.



اِبْتَسَمَتْ سارَة ، فابْتَسَمَ الفَتى الهِنْدِيُّ أَيْضًا ، مُفْلِتًا السَّعْدانَ. أَسْرَعَ السَّعْدانُ يَتَسَلَّقُ الجُدْرانَ ويَقْفِزُ إلى كَتِفِ سارَة.

خاطَبَتْ سارَةُ الفَتى الهِنْدِيَّ بِالهِنْدوسْتانِيَّةِ قائِلَةً : «تَعالَ خُذْهُ ، إذا شِئْتَ .»

فُوجِئَ الفَتى الهِنْدِيُّ رامْ دَس ، وسُرَّ سُرورًا عَظيمًا ، حينَ سَمِعَ الفَتاةَ تَتَحَدَّثُ بِلُغَتِهِ . فَتَحَدَّثَ إِلَيْها بِأَدَبٍ جَمٍّ واحْتِرامٍ مِثْلَما كانَ يَفْعَلُ خَدَمُ أَبيها .

ثُمَّ تَسَلَّقَ الجِدارَ هو أَيْضًا ونَزَلَ عِنْدَ سارَةَ . سَلَّمَ عَلَيْها ، وأَخْبَرَها أَنَّ سَيِّدَهُ مَريضٌ جِدًّا ، وأَنَّهُ مُتَعَلِّقٌ بِالسَّعْدانِ لأَنَّهُ يُضْحِكُهُ .

أَحَسَّتْ سارَةُ ، بَعْدَ رَحيلِ الفَتى الهِنْدِيِّ ، بِشَيْءٍ مِنَ الانْشِراحِ ، وقالَتْ في نَفْسِها : «لا أَزالُ قادِرَةً على أَنْ أُحِسَّ في داخِلي أَنّي أَميرَةٌ .»

أَسْرَعَ رامْ دَس إلى سَيِّدِهِ يُخْبِرُهُ حِكايَةَ الخادِمَةِ الصَّغيرَةِ الَّتي تَعيشُ في السَّقيفَةِ البارِدَةِ . قالَ له بِلَهْجَةِ المُتَعَجِّبِ : «إِنَّها تَتَكَلَّمُ كَما تَتَكَلَّمُ فَتاةٌ مِنَ النُّبَلاءِ !»

كانَ السَّيِّدُ كارِسْفورْد جالِسًا في مَكْتَبِهِ يَتَحَدَّثُ إلى السَّيِّدِ كارْمايْكِل ، رَبِّ الأُسْرَةِ الكَبيرَةِ . قالَ بِانْفِعالٍ :

«نَحْنُ نَعيشُ عيشَةَ تَرَفٍ وراحَةٍ ، بَيْنَما في الأَرْضِ أَطْفالٌ يَعيشونَ عيشَةَ بُؤْسٍ وشَقاءٍ ! تُرى أَيْنَ هي ابْنَةُ الضّابِطِ كْرو الصَّغيرَةُ ؟ آمُلُ أَنَّها لا تُعاني ما تُعانيهِ هذِهِ الفَتاةُ الصَّغيرَةُ ، في حينَ أَنَّ أَموالَ أَبيها كُلَّها مَعي وفي انْتِظارِها !»



قالَ الصَّديقُ المُحامي: «لَيْتَ أباها عَلِمَ قَبْلَ أنْ يَموتَ أنَّ مَناجِمَ الماسِ سَتَتَكَشَّفُ، آخِرَ الأمْرِ، عن ثَرْوَةٍ هائِلَةٍ!»

قالَ السَّيِّدُ كارِسفورْد، وقَدِ ارْتَسَمَتْ على وَجْهِهِ مِسْحَةٌ من أَمَلٍ: «لَعَلَّها في مَدْرَسَةٍ في باريس. فأُمُّها كانَتْ فَرَنْسِيَّةً. وآمُلُ أنْ نَجِدَها قَريبًا.»

لم يَكُنِ الرَّجُلانِ يُدْرِكانِ أنَّ الطِّفْلَةَ الَّتي كانا يَبْحَثانِ عنها، مُنْذُ زَمَنٍ طَويلٍ، كانَتْ في الجانِبِ الآخَرِ مِنَ الجِدارِ.



السِّحْرُ

صَعِدَتْ سارَة وبَكي إلى سَقيفَتِهِما في اليَوْمِ التّالي، جائِعَتَيْنِ مَقْرورَتَيْنِ. كانَتِ الطَّبّاخَةُ غاضِبَةً فلم تُعْطِهِما عَشاءً. وعِنْدَما عَلِمَتْ أَرْمِنْغارْد بِما حَدَثَ حَمَلَتْ بَعْضَ الحَلْوى والكَعْكِ والفاكِهَةِ الَّتي تَلَقَّتْها من عَمَّتِها وتَسَلَّلَتْ إلى السَّقيفَةِ. فَرَشَتْ سارَة على الطّاوِلَةِ شالًا قَديمًا، ثُمَّ أَشْعَلَتْ في المَوْقِدِ وَرَقَةً لِتَتَخَيَّلَ أنَّ النّارَ تَتَّقِدُ.

أَشَعَّتْ عَيْناها بَريقِهِما القَديمِ، ونَسِيَتِ الشَّوارِعَ البارِدَةَ، وقالَتْ: «هٰذِهِ وَليمَةٌ سِحْرِيَّةٌ!»



لٰكِنْ حَدَثَ في تِلْكَ اللَّحْظَةِ أنْ سُمِعَتْ خُطُواتٌ ثَقيلَةٌ على الدَّرَجِ. لَقَدِ اكْتَشَفَتِ الآنِسَةُ مِنْشِن الأمْرَ! أَخْبَرَتْها لافينيا! أَسْرَعَتِ الآنِسَةُ إلى الطّاوِلَةِ وأَزالَتِ الوَليمَةَ ورَأَتْ سارَة تُحَدِّقُ فيها بِعَيْنَيْها الخَضْراوَيْنِ، فقالَتْ لها:

«لِمَ تُحَدِّقينَ فيَّ؟»

أَجابَتْ سارَة: «كُنْتُ أَتَساءَلُ، ما الَّذي كانَ يُمْكِنُ أنْ يَقولَهُ أبي لو عَلِمَ أَيْنَ أنا الآنَ.»

انْتَفَضَتِ الآنِسَةُ مِنْشِن وزَعَقَتْ قائِلَةً: «فَتاةٌ وَقِحَةٌ، شَقِيَّةٌ!» ثُمَّ دَفَعَتْ أَرْمِنْغارْد أَمامَها على الدَّرَجِ.



جَرَّتْ سارَةُ نَفْسَها إلى فِراشِها القاسي وحاوَلَتْ أنْ تُخَفِّفَ من وَقْعِ ما جَرى. فقالَتْ في نَفْسِها. «لِنَفْرِضْ أنَّ نارًا قَوِيَّةً كانَتْ حَقًّا تَتَّقِدُ...» ونامَتْ «مُفْتَرِضَةً»

وبَيْنَما هي نائِمَةٌ دَخَلَ لِغُرْفَةِ شَخْصانِ أَسْمرانِ، راحا يَجولانِ في الغُرْفَةِ بِصَمْتٍ. وعِنْدَما استَيْقَظَتْ سارَةُ ظَنَّتْ أنَّها لا تَزالُ تَحْلُمُ. فقد كانَتْ مُغَطَّاةً بِبَطَّانِيَّاتٍ دافِئَةٍ. ورَأَتِ المَوْقِدَ يَتَأَجَّجُ نارًا، ورَأَتْ على الطَّاوِلَةِ مِفْرَشًا أَبْيَضَ مُطَرَّزًا، وُضِعَتْ عَلَيْهِ صُحونُ طَعامٍ وإناءُ أَزْهارٍ. ورَأَتْ إلى جانِبِها رِداءً مُخْمَلِيًّا فاخِرًا وخُفَّيْنِ. لقد كانَتْ غُرْفَةَ أَحْلامِها!

وعلى الطَّاوِلَةِ رَأَتْ وَرَقَةً كُتِبَ عَلَيْها: «إلى فَتاةِ السَّقْفِيَّةِ الصَّغيرَةِ، مِنْ – صَديقٍ.»



اِسْتَيْقَظَتْ بَكي فَرَأَتِ «الأَميرَةَ» سارَةَ تَقِفُ إِلى جانِبِ سَريرِها في رِداءٍ قِرْمِزِيٍّ فاخِرٍ.

صاحَتْ سارَةُ: «آهِ، يا بَكي، قومي انْظُري! إِنَّ في الأَمْرِ لَسِحْرًا!»



الزّائِرُ

تَسَلَّمَتْ سارَةُ في اليَوْمِ التّالي رِزْمَةً. كانَ فيها ثِيابٌ دافِئَةٌ، وأَحْذِيَةٌ ومِعْطَفٌ جَميلٌ.

ساوَرَ القَلَقُ الآنِسَةَ مِنْشِن. أَيُمْكِنُ أَنْ يَكونَ قَريبٌ ثَرِيٌّ مِن أَقْرِباءِ سارَةَ قَد عَرَفَ كَيْفَ تُعامَلُ؟ فَكَّرَتِ الآنِسَةُ مِنْشِن بِالأَمْرِ بَعْضَ الوَقْتِ، ورَأَتْ أَنْ تَسْمَحَ لِسارَةَ بِالعَوْدَةِ إِلى مُشارَكَةِ رَفيقاتِها الدُّروسَ.

قالَتْ جِسي: «شَيْءٌ عَجيبٌ! انْظُروا إِلى 'الأَميرَةِ' سارَةَ! لا بُدَّ أَنَّها قَد وَرِثَتْ ثَرْوَةً طائِلَةً!»

قالَتْ سارَةُ في نَفْسِها: «لَيْتَني أَعْرِفُ ذٰلِكَ الإِنْسانَ فَأَشْكُرَهُ!»

في تِلْكَ اللَّيْلَةِ أَتى السَّعْدانُ الصَّغيرُ إِلى شُبّاكِ سَقْفِيَّتِها، خائِفًا مَقْرورًا.

قالَتْ لَهُ سارَةُ: «تَعالَ عِنْدي. سَآخُذُكَ صَباحًا إِلى السَّيِّدِ الهِنْدِيِّ.»



الجانِبُ الآخَرُ مِنَ الجِدارِ

في اليَوْمِ التّالي جَلَسَ السَّيِّدُ كارِسْفورْد في مَكْتَبِهِ وقَدِ اعْتَرَتْهُ الكَآبَةُ. فإِنَّهُ لم يَتَلَقَّ أَخْبارًا من باريسَ عَنِ ابْنَةِ الضّابِطِ كْرو. وجاءَتِ الأُسْرَةُ الكَبيرَةُ بِأَفْرادِها جَميعًا لِزِيارَتِهِ. قالَ وَلَدٌ لِأُمِّهِ: «هَلْ حَدَّثْتِ السَّيِّدَ كارِسْفورْد عَنِ اللاَّمُتَسَوِّلَةِ الصَّغيرَةِ؟»

في هٰذِهِ اللَّحْظَةِ دَخَلَ المَكْتَبَ رامْ دَس، وقالَ: «يا سَيِّدي، الطِّفْلَةُ الَّتي حَدَّثْتُكَ عنها هُنا. أَتَرْغَبُ في رُؤْيَتِها؟»

دَخَلَتْ سارَة حامِلَةً السَّعْدانَ المُصَوِّتَ. حَيَّتْ مَنْ في الغُرْفَةِ وخاطَبَتْ سَيِّدَ الدّارِ بِالهِنْدوسْتانِيَّةِ قائِلَةً: «أَأُعْطيهِ إلى رامَ دَس؟»

سَأَلَ السَّيِّدُ كارِسْفورْد في دَهْشَةٍ: «أَيْنَ تَعَلَّمْتِ الهِنْدوسْتانِيَّةَ؟»

«وُلِدْتُ في الهِنْدِ، وأُرْسِلْتُ إلى إنْكِلْترا لأَتَلَقّى العِلْمَ. لٰكِنَّ أَبي ماتَ فَقيرًا. فكانَ عَلَيَّ أَنْ أَعْمَلَ خادِمَةً.»

«كَيْفَ خَسِرَ أَبوكِ أَمْوالَهُ؟»
«بالَغَ في الثِّقَةِ بِأَحَدِ أَصْدِقائِهِ.»

بَدا الذُّهولُ على السَّيِّدِ كارِسْفورْد، وقالَ: «ما اسْمُ أَبيكِ؟»

«اِسْمُهُ رالْف كْرو، وقد ماتَ في الهِنْدِ.»

شَهَقَ السَّيِّدُ كارِسْفورْد، وصاحَ: «كارْمايْكِل... إِنَّها الطِّفْلَةُ!»

قالَتْ سارَة في حَيْرَة: «أَيُّ طِفْلَةٍ؟»

قالَ السَّيِّدُ كارْمايْكِل مُوَضِّحًا: «السَّيِّدُ كارِسْفورْد كانَ صَديقَ أَبيكِ. ونَحْنُ نَبْحَثُ عَنْكِ مُنْذُ سَنَتَيْنِ!»

قالَتْ سارَة: «وأَنا طَوالَ الوَقْتِ ها هُنا، في الجانِبِ الآخَرِ مِنَ الجِدارِ!»



غَفَرَتْ سارَة لِلسَّيِّدِ كارِسْفورْد إساءَتَهُ القَديمَةَ. فقد عَلِمَتْ أنَّهُ كانَ في حالٍ صِحِّيَّةٍ مُتَرَدِّيَةٍ، وأنَّهُ بَذَلَ جَهْدًا كَبيرًا في البَحْثِ عَنْها، وأنَّ السِّحْرَ في السَّقيفَةِ كانَ من عَمَلِهِ وعَمَلِ رامْ دَس.

بَدا الانْشِراحُ على السَّيِّدِ كارِسْفورْد حينَ وافَقَتْ سارَة على الإقامَةِ مَعَهُ في بَيْتِهِ. وبَدَتِ السَّعادَةُ أيْضًا على رامْ دَس والسَّعْدانِ الصَّغيرِ!



أمّا الشَّخْصُ الوَحيدُ الّذي لم يَكُنْ سَعيدًا فقد كانَ الآنِسَةَ مِنْتشِن. فإنَّهُ قد ثارَ عَلَيْها الجَميعُ. حتّى أُخْتُها أميليا ثارَتْ عَلَيْها. وسَحَبَ بَعْضُ الأهالي بَناتِهِمْ مِنَ المَدْرَسَةِ.



وقَرَّرَتْ سارَة أنْ تَسْتَدْعِيَ بَكي لِتَعيشَ مَعَها. وذَهَبَ رامْ دَس إلى السَّقيفَةِ لِلمَرَّةِ الأخيرَةِ حامِلًا إلَيْها النَّبَأ. وكادَتْ بَكي لا تُصَدِّقُ ما سَمِعَتْ.

وفي أحَدِ الأيّامِ ذَهَبَ السَّيِّدُ كارِسْفورْد وسارَة إلى المَخْبَزِ المُجاوِرِ. وكانَ في المَخْزَنِ الفَتاةُ المُتَسَوِّلَةُ الصَّغيرَةُ، لٰكِنَّها كانَتِ الآنَ نَظيفَةً مُتَوَرِّدَةَ الوَجْهِ. وكانَتْ تَعْمَلُ في المَخْزَنِ، فَقَدِ اسْتَخْدَمَتْها صاحِبَةُ المَخْزَنِ لِبَيْعِ الفَطائِرِ ولِلعَمَلِ في المَطْبَخِ أيْضًا.

قالَتْ سارَة لِلسَّيِّدِ كارِسْفورْد: «أعْطِها بَعْضَ المالِ، فَتُقَدِّمَ فَطائِرَ لِلأطْفالِ الجائِعينَ. إنَّها تَعْرِفُ مَعْنى الجوعِ.»

خَرَجَتِ الفَتاةُ الصَّغيرَةُ تُرافِقُ سارَة إلى عَرَبَتِها، وقالَتْ في نَفْسِها، وهي تُوَدِّعُها: «ما أشْبَهَها بِأميرَةٍ صَغيرَةٍ!»



تسعى مكتبة لبنان من خلال هذه السلسلة إلى تعريف الفتى العربيّ بروائع الأدب العالميّ ، وإعداده للدخول ، فيما بعد ، في عالم القصص الخالدة من بابه الواسع . إنّنا نعتقد أنّ من حقّ أبنائنا أن يكوّنوا فكرة صحيحة شاملة عن نتاج القصص الذائعة الصيت في مختلف أصقاع الأرض .

على أنّنا نثق أنّ هذه القصص تصلح ، بالشكل الذي نقدّمها فيه ، للكبار أيضًا . لأنّنا حرصنا على ألّا ننتقص من جوهر الفكرة التي يقوم عليها العمل ومن بناء الشخصيّات كما أرادها المؤلّفون .

وحرصنا على المحافظة على عناوين الكتب الأصليّة وكذلك على أسماء العلَم والأماكن ، كما وردت في الأصل ، رغبةً في إعطاء صورة حقيقيّة عن الجوّ العامّ للقصص ، من حيث المكان والأوضاع الاجتماعيّة والأحداث التاريخيّة ، وخدمة للهدف الذي نسعى إليه وهو تمهيد الطريق للتعرّف إلى الأدب العالميّ . على أنّنا تجنّبنا الخوض في تفاصيل الأسماء التي لا تتعلّق مباشرة بصلب الموضوع ولا تؤثّر على سير الأحداث ، وذلك لكي لا نربك القارئ العربيّ بأسماء ثانويّة الأهمّيّة ، غريبة اللفظ قليلة التواتر .

وتمتاز هذه القصص كلّها بأنّها شديدة التشويق ، وتقوم في غالبها على المغامرات المثيرة . وأكثر هذه القصص المختارة كتبت أصلًا لترضي جمهور الشباب ، وهي من هذه الناحية ترضي مشاعرهم ومبادئهم وحبّهم للانطلاق واكتشاف المجهول .

إنّ هذه القصص جميعها ، وإن تكن في غالبها تقوم على حبّ المغامرة ، تتناول أصدق المشاعر الإنسانيّة ، وتصوّر كفاح الإنسان لتحقيق مُثُله العليا دون أن يعبأ بالتضحيات .

وزُوّدت كتب السلسلة جميعها بمقدّمات تعرّف بالمؤلّف كما زوّدت برسوم ملوّنة رائعة تضفي جوًّا من السحر على أحداث القصص ، وتصوّر الخلفيّات الاجتماعيّة والتاريخيّة أصدق تصوير .

تنضيد الحروف : مؤسسة حبيب درغام وأولاده ، لبنان . عمل رقم ١٧٠٩



Series 654 Arabic